

خمس عشرة سنة ^(١) ما لا يصنع العقل وحده في خمسة عشر قرناً»
وفي الجزء التالي سنشرقة هذا التمهيد الذي نبسط فيه تاريخ رحلات الجامعة بالاستاذ
ثم ننتقل الى النظر في مبادئه وارائه واعماله وصفاته ونقارن بينها وبين مبادئ استاذ
جمال الدين

مشاهير المنقذين المناشرين

حب روسو ومدام وارين

(زيارة صاحب الجامعة بيتها في شمبيري)

الذي ابتاعه الحكومة وجعلته مزاراً عمومياً يقصده السياح من اوروبا واميركا

❦ سياحة صاحب الجامعة ❦ لقد شاهدت في سياحتي من الاسكندرية الى
نيويورك مشاهد عظيمة ورأيت اموراً بدية وخطري في اثائها افكار كثيرة الا ان
فكري لم يسرح بعد لتقيدها وتسطيها على صفحات الاوراق. فقد زرت في سياحتي
هذه مرسيليا ومعرضها الاستعماري العام وشاهدت الاقسام المراكشية والجزائرية والتونسية
فيه. ثم زرت باريز وليون وكرونبل وشمبيري وفالانس وكيلوس وحمامات اكس. وقد
قطعت مقاطعة السافوى البديعة التي هي درة في عقد البلاد الفرنسية من افصاها الى
افصاها. ومررت فيها بين مضائق جبال الالب البديعة وسط تساقط المطر ولذع البرد
وخير الانهار وصغير البخار. فكنت في القطار كلما خوذ انقل من نافذة الى نافذة وانا
اقول: هذه جنة الله في الارض. وحياناً اتعمد نسيان نفسي في القطار فجري بي مرة عشرين
ساعة وانا الاحظ البلاد كأنها بانوراما تبسط امامي الى ما شاء الله وادرس احوال الناس

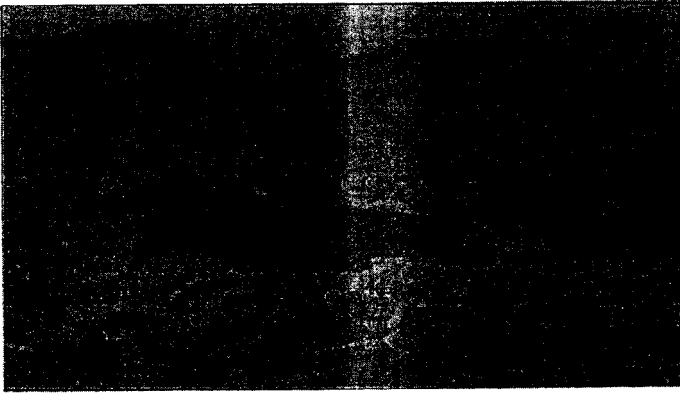
(١) لما نشر هذا الرأي في الجامعة واطلع عليه احد جواسيس الاستانة جاء يسالنا
الا تظنون ان محمد عبده يريد بعذه المدة « ١٥ سنة » المدة التي مرت على ملك
جلالة السلطان) فضحكنا وقلنا له (اذهب واستنطقه ولا تستنطقنا)

الذين يركبون القطار معي من محطة الى محطة . اما باريز فحدث عنها ولا حرج . فقد وفقني الله فيها الى صديقين اطاعاني منها في اسبوع واحد على امور ما كنت لاطلع عليها وحدي في شهر . فتى كتبت هذه السياحة التي استغرقت شهراً تقريباً وجد فيها القارى من المعلومات المفيدة والملاحظات الاجتماعية والطبيعية والادبية ما يلذ وينيد . وحسبك نوادر وحوادث السفر في الباخرتين من الاسكندرية الى مرسيليا ومن الهافر الى نيويورك . وسابدأ بها في الجزء التالي

اما الان فاقصر في هذا الفصل على زيارتي لبلدة شمبيري التي هي من اهم حوادث سفري وقد قصدتها خاصة مع انها تبعد ٥٩٢ كيلومتراً عن باريز

عند منذ ١٥ سنة  قال الفيلسوف تولستوي لبعض محدثيه : كنت في شبابي اعبر جان جاك روسو الها واعبده عبادة . وقد علقته صورته بعنقي كما تعلق صور القديسين . قلت وقد اولعت في زمن الشباب — وهو زمن صرت اراه بعيداً وان لم يكن يبعد — بطالعة كتب روسو ولعاً شديداً . ولما قرأت كتابه « الاعتراف » رأيت فيه وصفه لبلدة شمبيري ومعيشته في بيت فيها هو وحيبته مدام دي وارين وبسطه قصته معها ببلاغة كبلاغة الآلهة تحركت نفسي شوقاً الى ذلك الوادي والحرش والبيت الذي وصفه المؤلف وقلت في نفسي انني عند اول مرة تطأ فيها قدمي ارض فرنسا ساقصد بدون شك بلدة شمبيري لزيارتها وزيارة الوادي الذي عاش روسو فيه مع حبيبته . فهناك مصدر الغزل والحب والشعر . هناك الحرم المقدس الذي لجأ اليه النقي روسو من مصائب الدهر فوجد فيه نفساً كبيرة في جسم امرأة ناشزة خرجت عن الطريق القويم فاستمدت كبر نفسه . من نفسها وعظمته من عظميتها . فكونت معيشته معها بين الاحراش والازهار في وسط الطبيعة بمنزل عن الناس وروحه تكويناً جديداً وجعلتها كما ظهرت بعد ذلك في كتبه التي قابلت وجه العالم وغيّرت افكار البشر في الارض لان انفجار الثورة الفرنسية يعزى اليه

 شمبيري  بلدة عدد سكانها اليوم ٢٢ الف نفس وهي مركز مقاطعة السافوى . ومقاطعة السافوى هذه كانت من قبل ملكاً لعائلة سافوى المالكة اليوم في ايطاليا واليا نسبت هذه العائلة ولكنها ضمت الى فرنسا في سنة ١٨٦٠ . واشهر ما في المدينة متحفها وكنيستها وعلى الاخص القصر الملكي الذي كان يسكنه آل سافوى لما كانت شمبيري عاصمة لامارتهم . وهي قائمة في وادي منفرج تحيط به جبال الالب من كل الجهات تكتنفها الاحراش والطبيعة من كل صوب . فكانها جعلت هناك للجمال والحب . وفوقها قمة

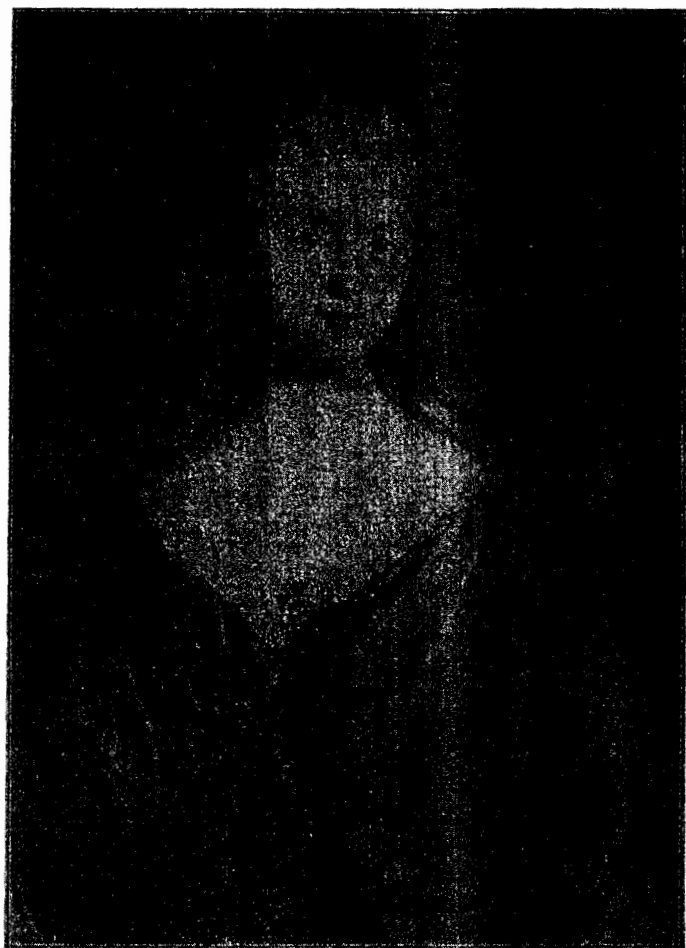


مدينة شمبيري Chambéry

« جبل نيفوله » Nivolet نصب عليها صليب علوه ١٨ متراً ولكنه يظهر فوق المدينة كأنه بقدر شبر لارتفاع الجبل اذ يعلو ١٥٥٨ متراً عن سطح البحر. ويبت روسو فوق هذه البلدة الى شمالها وهو في وادٍ مشرف على البلدة مقابل جبل نيفوله (انظر عيّن الرسم في الحرش)

﴿ قصتهما ﴾ ليس الغرض في هذا الفصل ان نبسط ترجمة روسو ونذكر شيئاً من تاريخ حياته . فان فيلسوفاً كبيراً كهذا الفيلسوف الذي ازعج الارض كلها بمبادئه وافكاره لا يمكن ان يترجم في فصل او فصلين . فترجى الآت ترجمته وتلخيص مبادئه وكتبه الى فرصة اخرى . وسنبتدى ذلك في الجزء التالي اذ نلخص فيه ما كتبه عن مدام دي وارين ومعيشته معها في شمبيري . اما الان فنقتصر على ما يلي لاطلاع القارىء على لمحة من قصتها

كانت مدام دي وارين سيدة من النبلاء يُعرف ذلك من اسمها . وكانت بروتستنتية فلما تركت مذهبها واعنقت الكاثوليكية جعل لها الملك راتباً نقبضه شهرياً وكانت تعيش في بلدة شمبيري لما قصدها صاحبنا روسو . ولما نصف هذه المرأة لان روسو في كتاباته سيصفها وصفاً دقيقاً وانما نقول انها لما كانت متزوجة اتخذت رجلاً يدعى المسيودي تافل معلماً يعلمها الفلسفة . وكانت شديدة الامانة لزوجها فلما رأى هذا المعلم الشقي (كما يسميه روسو في كتابه) تدرعها بدرع الامانة الزوجية وعجزه عن افساد قلبها لاستئثارها واجندابها اليه عمد الى طريقة اخرى تمكنه من مراده فصار يصدم « عقل » المرأة بدل صدمه « قلبها » اي انه صار ياتي عليها بمبادئ تحل مبادئها وتفسد عقلها حتى تمكن منها وابطل اعتقادها القديم في الواجبات الزوجية والعائلية مما لا محل لبسطه هنا

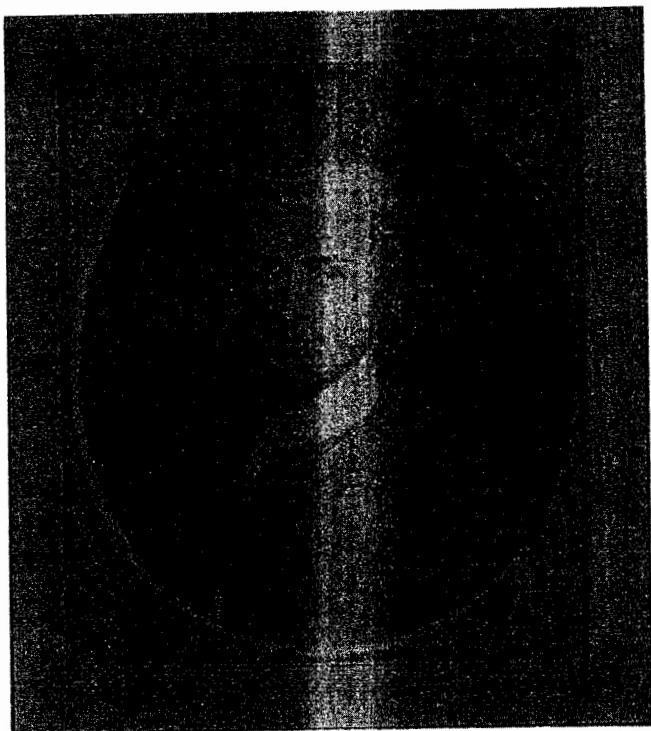


مدام دي وارين

ولما عرف روسو مدام دي وارين كان في السابعة عشرة من عمره وكان ضعيفاً ضئيلاً طارده المصائب واذله النقر. فانه استخدم اولاً في محل « مسجل » ثم عند نقاش وكان فكره المطلق ورغبته في المطالعة يزهدانه بهذه الصناعة . ففرّ من جنيف مسقط رأسه (١) واستخدم في منازل الكبار كخادم ودخل احد الاديرة ليصير راهباً . وما زال تائهاً طريداً حتى

(١) لم يكن روسو فرنسويّاً بل جنيفياً وقد قال عن نفسه في تاريخ حياته انه تلقى حب الحرية والجمهورية من تراجم فلوطرخس وجمهورية جنيف وطنه

عرفه بعض الذين اهتموا به الى مدام دي وارين وارسلوه اليها لتسعى في نفعه . فادخلته مدام دي وارين بيتها واهتمت لامره فوصل روسو الى يدي مدام دي وارين ونفسه مشوّهة تشويهاً قبيحاً ذكره في كتبه ولكن جسمه ومنظره كان لطيفاً مقبولاً . ورسمه

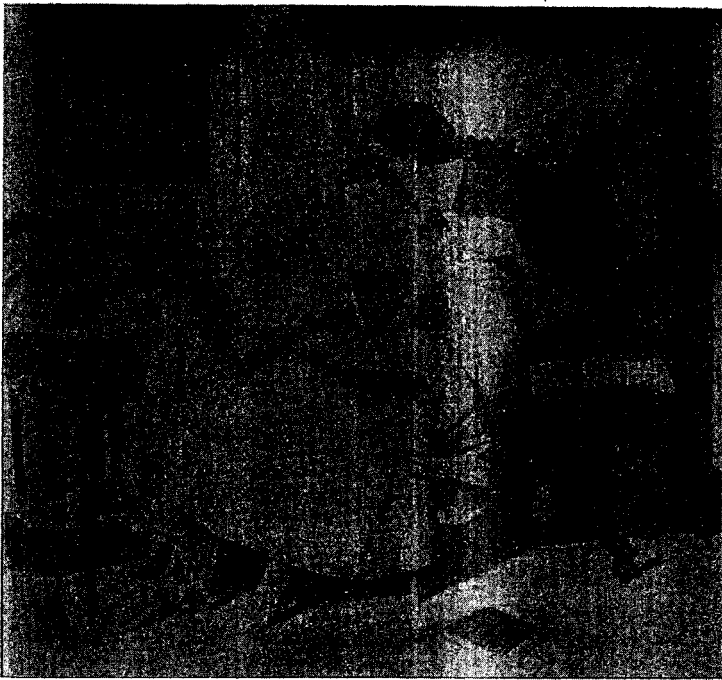


جان جاك روسو في شبابه

الموجود في هذا الفصل هو رسمه بعد دخوله الى بيتها . وكان لمدام دي وارين خادم يدعى (كلود أنه) رفعته من درجة الخدمة الى درجة الصديق وعهدت اليه زمام بيتها . فلما دخل روسو الى البيت ادرك ما كان بينها وبين وكيل اشغالها من « الصلات الخصوصية » وكان بيت مدام وارين مقصداً لأكبر الرجال والقواد الذين كانوا يمرّون بشمبيري في اثناء الحروب بين فرنسا وسردينيا والامارات الايطالية لان شمبيري على الحدود بين فرنسا وايطاليا . وكانت مدام وارين تعيش في بيتها بين اولئك الاقوام الذين يترددون عليها لخطبة صداقتها وودادها معيشة رجل لا معيشة امرأة . وقد اعجبها روسو ولطفه الصياني كما اولع هوبها اول ما وقع نظره عليها . وكان يدعوها « ماما » Maman اي « يا اماء » تحبباً

وتلطفاً فتدعوه هي *Mon petit* « يا صغيري » . وقد بقي يسميها كذلك حتى في كتيبه . فلما رأت مدام وارين ان روسو بلغ العمر الذي يُخشى منه على الشاب ان ينظر الى الجنس الثاني نظراً مخصوصاً جاءته واقترحت عليه اقتراحاً غريباً . قال شاتوبريان الكاتب المشهور : ان روسو رغبةً منه في ان يكتب صفحات متناهية في البلاغة والجمال قد فضح امرأة شرّاً فضيحة بما كُتبه وفصله عنها

ومن هذا الحين عاش الفتى روسو مع مدام دي وارين معيشة الزوج مع زوجته . ولما توفي كلود أنه أصبح الفتى روسو صديقها الوحيد



روسو ومدام دي وارين في القاعة

وكانت مدام دي وارين امرأة قد اعتادت التبذير واثقلتها الديون فلشدة حاجتها الى المال صارت تشتغل « بالكيمياء القديمة » نغني انها كانت تطلب تحويل المعدن الدنى معدناً ثميناً . فصار بيتها في شمبيري مقصداً للجميع المشعوذين الذين يدعون هذا العلم . فرغبة في الفرار منهم ومن سائر القوم الذين كانوا يزعمون البيت وسكانه اقترح روسو على خليلته ان يخرجوا من البلدة ويعتزلا الناس في بيت بين الاحراش خارجاً عنها . فذهبا واستاجرا

بيتاً فوق شمبيري في الخلاء والفضاء بين الاحراش والطيور. وقد اقام روسو فيه مع مدام دي وارين من سنة ١٧٣٦ الى سنة ١٧٤٠ اي اربع سنوات ذاق في اثناها السعادة الحقيقية اي المعيشة بسذاجة وراحة في حضن الطبيعة مع نفس كريمة يحبها وتحبه

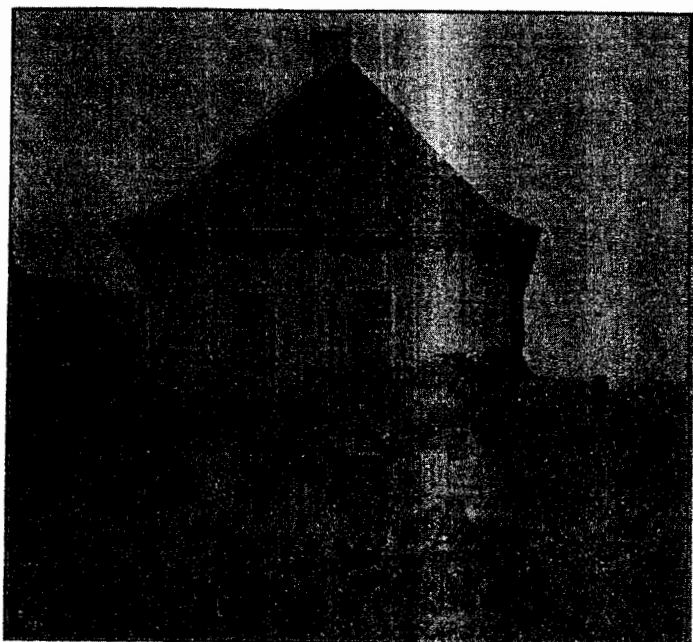
تأثيرها عليه. ان الذين اكرموا بيت روسو ومدام دي وارين هذا الاكرام لم يكرموها لما كان بينها وبين فيلسوف جنيف من الحب والوداد فان هذا عادي يكون كل يوم بين الكتاب والشعراء وربات الظرف والجمال. وما يرح الكتاب والشعراء خصوصاً من كان منهم ارق احساساً وادق شعوراً اكثر الناس تعرضاً لهذا الداء الذي يسمونه حباً. وانما اكرموا البيت وصاحبه لما كان لهما من التأثير العظيم على عقل روسو وقلبه. فالوحدة والطبيعة غرستا فيه منذ شبابه بذور الدعوة للرجوع الى الطبيعة السخونة كتبه بها في كل سطر من سطورها. واخلاق مدام دي وارين الكبيرة كبرت اخلاقه وغيّرت مشربه فبعد ان كان فتى منكشاً منقبضاً مخفض الرأس لاعتياده ذل الخدمة معتاداً السرقة في بعض الاحيان كما قصّ ذلك في تاريخ حياته واذا به قد اصبح رجلاً « بكل معنى الكلمة ». وقد قصّ في تاريخه عدة قصص بهذا الشأن اليك واحدة منها. لما توفي كلود آنه وكيل اشغال مدام دي وارين بكى عليه روسو بكاء شديداً لانه كان يحبه. ولكن في اثناء بكائه فكّر انه قد ورث ثوبه الاسود الجليل فاظهر لمدام دي وارين سروره بذلك. فصعقت مدام دي وارين لهذه العاطفة الرديئة فحولت وجهها وصارت تبكي. فانطرح روسو على عنقه. قال: ومن هذا الحين خرجت الى الابد كل عاطفة دينية من نفسي

فيا سحر الحب والوداد انك لتفعل في النفوس ما لا تفعله كل قوات العالم

زيارتي بيت روسو. وصلت الى شمبيري في منتصف الليل فمت بقية الليل في « اول البوسطة » ومنذ وطأت قدمي ارض شمبيري صرت احس بجحى جان جاك تدب في مفاصلي. فقلت غداً سارى البيت الذي نام فيه جان جاك واقفاً الاشجار التي تفيأها وادوس الارض التي داسها واسمع صوت الاطيار والانهار التي سمعها. فلم اتم الا في الساعة الثانية بعد منتصف الليل. ولما انشق حجاب الفجر نهضت مسرعاً فاستأجرت مركبة (١) وسرنا من شارع جان جاك روسو نحو الوادي والاكمة وراءه ويصعد اليها في طريق مخططة سهلة. وكانت الساعة السادسة صباحاً والنسيم يداعب اغصان الحرش على جانبي الاشجار تظلامي في مسيري والطيور الغريبة الصوت الرخيمة الغناء تغرد

(١) الاجرة ٦ فرنكات ذهاباً واياباً مع انتظار ٣٠ دقيقة امام البيت

فيها فوق رأسي تغريداً حرك عواطفني وهاج شجني . وكنت ساكناً مبهوئاً مدة الطريق فكأنني السائق مرتين فلم اجبه الا اشارة . وبعد ٣٠ دقيقة انتهيت الى البيت



بيت روسو

يدعى (Les Charmettes) اي الفتان وسمي كذلك لان النظرة منه

في الجبال والاحراش والبلدة تفتن الالباب

فلما صعدت الطريق الضيقة المؤدية اليه ووضعت قدمي في عتبة الباب احسست بقشعريرة في بدني . جان جاك جان جاك هوذا شخص من الف او من مليون اضرته مبادئك وجاء يشكو ضرره لك . منذ ١٥ سنة كنت اتمنى زيارتك وهاءنذا في بيتك . ولا تسألني هل هذه الزيارة زيارة تثبيت ام زيارة وداع فاني جئتكم ضجيراً تبعاً من خدمة لا يجني صاحبها اذا اخلص النية فيها سوى الاضطهاد والعدوان

والبيت تحيط به حديقة من جانبيه . وامامه حديقة كبرى تزرع اليوم بقولاً . وهو مطوق في وسطه بشجرة تسمى « لا كلينسين » ذات زهر وردي يجعل للبيت هيئة غزلية جميلة . وعلى جداره امام باب الدخول بلاطة نقشت عليها الايات الفرنسية التالية

Réduit par Jean-Jaque habité,
 Tu me rappelles son génie,
 Sa solitude, Sa fierté
 Et ses malheurs et sa folie.
 A la gloire, à la vérité,
 Il osa consacrer sa vie,
 Et fut toujours persécuté,
 Ou par lui-même ou par l'envie. (1)

وهذه الايات البديعة نظمها على ما يُقال مدام دايناي التي ورد ذكرها كثيراً في تاريخ حياة روسو وقد نقشها وجعلها هناك هيرو وسبيل في سنة ١٧٩٢ عند ابتداء الثورة الفرنسية

ولما قرعتُ الجرس المعلق فوق الباب جاءت حارسة المكان . وهي مكلفة في ذلك البيت من قبل الحكومة باستقبال الزائرين وقبض اجرة الزيارة وقيمتها نصف فرنك عن كل شخص . والبيت طبقان في الطبقة السفلى غرفتان الاولى غرفة المائدة في وسطها المائدة التي كانا يا كلان عليها وفي خزانه كبرى الى ما وراءها صحون عديدة كانوا يستعملونها . ووراء غرفة المائدة فاعة الاستقبال وفي وسطها مائدة عليها شيء كثير من الصور التي نشرناها في هذه المقالة ولا توجد في غير هذا البيت وفي تباع للزائرين . وبجانها السجل الذي يقيد فيه الزائرون اسماءهم وعواظهم . وفي الطبقة الثانية من البيت (مصلّى) مدام دي وارين وهو مذبح للصلاة مزين بالايقونات والصور وبجانها غرفتها وهي تشتمل على سريرها وكلة السرير ومرآتها وغير ذلك . وان القطن المشوبه فراشها بادٍ للنظر لتقدم عهده . وارض غرفتها الخشبية قد اكلمها السوس والاقدام فلا بدّ من تجديدها او سترها بطبقة خشبية بعد ١٠ او ٢٠ عاماً . والنظرة من نافذتي غرفة مدام دي وارين الى شمبيري وما حوله من الجبال والاحراش نظرة لم ارَ مثلها في حياتي كلها لا في قمة الاهرام ولا في اعالي الارز وصنين . وبجانها غرفة مدام دي وارين غرفة روسو وفيها سريره الجميل والمرآة التي كان ينظر فيها وجهه . ولم نصف هذه الغرف كلها لاننا اخذنا رسومها ونشرها في جزء تالٍ

سجل وفكاهاته . وكان في البيت سائحان غيري واحد انكليزي وواحد فرنسوي . فلما انتهيت من الزيارة طلبت سجل المكان لأقرأ فيه اسماء الزائرين

(١) ترجمتها — يا بيتاً سكنه جان جاك . انك لتذكرني روحه العظيمة ووحدته وكبرياءه ومصائبه وجنونه . فانه اجتراً على ان يجعل حياته وقفاً للمجد والحقيقة . ولذلك كان تارة يضطهده الناس حسداً وتارة هو نفسه يضطهده نفسه

وما كتبوه . فهناك سجلان سجل هذا العام وسجل امتلا في مدة ثلاثة اعوام .
فتصفحتهما كلها بدلالة المرأة حارسة المكان وهي سيدة متا دبة تحرس البيت هي وحماتها .
ثم اخترت منها بضعة امماء ونقلتها ولو اردت قراءتها كلها لاقمت في البيت اسبوعاً . واليك
ما نقلته منها

رائت في السجل توقيع المسيو « اناتول فرانس » احد رجال الاكاديمية وهو أشهر
كتاب فرنسا اليوم ^(١) وتحت توقيعه هذه الكلمات « الكرامة لروسو وبرجيريه » والتاريخ
١٨ ابريل سنة ١٩٠٣ وبرجيريه هو بطل كتابات اناتول فرانس . وفي صفحة اخرى
توقيع المسيو ريشبين وتحت هذه الكلمات « وانا افكر في اناتول فرانس » اي وقع وهو يفكر
فيه تشبهاً له بروسو . وهناك توقيع الكونتس دي نوايل الكاتبة الفرنسية المشهورة وفوقه
هذه الكلمات « يا عزيزي روسو . يا عزيزي جان جاك . انت الرجل الذي كنت
اكثر الناس حباً له والذي اثبت عليه واحفظت بأمره اعظم احفالت تحت امماء متعددة »
تعني اسماءها التي تستعملها للكتابة . — وهناك توقيع بسيط « بول ياسينت لوازون
٢١ اكتوبر سنة ١٩٠٣ » وهو الكاتب المشهور الذي كان كاهناً فرنسياً وترك الكهنوت .
وتوقيع المسيو موديس بارس الذي جعل في هذا العام عضواً للأكاديمية الفرنسية . والبارونة
Kharuncé ولعلها اجنبية لا فرنسية . وبين هذه التواقيع توقيع لا تحصى . (٢) مقرونة
بعضها بشعر وشر اطول وابرء من ليالي الشتاء وبعضها كلام موجز كايجاز العلماء . وجميع
ما قرائته منها انما هو تغزل وهتاف لصاحبي المكان . منهم واحد كتب يقول « هنا دماغ
فرنسا مصدر الحس ودقة الشعور فزوروا هذا المكان زيارتكم لهما كل العبادة » ولم اعثر
الا على قاذح واحد واليك ما كتب « اذا عادت فرنسا الى نفسها يوماً من الايام فانها

(١) ترجمناه خطبة في الحزب العاشر السنة الرابعة

(٢) وجدنا بينها توقيعين بالعربية احدهما قريب لسعادة بطرس باشا غالي
ناظر الخارجية في مصر . ولما ابقسمنا لقراءتهما قالت لنا حارسة المكان « هل المسيو
يفهم هذه الكتابة الصينية » فضحكت ولم اجب . وبما ان حمامات اكس لا تبعد
عن شمبيري سوى ساعة في القطار وكثيرون من افاضل المصريين يفدون كل عام
على تلك الحمامات فغير بعيد ان الذين يذوقون الادب منهم يقصدون بعد اليوم
شمبيري من حمامات اكس « لياخذوا فيها حماماً من الشعر والادب والجمال
الطبيعي »

ستنقل عظام روسو من البانيشوت وتطرحها في نهر السين» — قلت فتأمل البون التاسع بين هذا الراي والراي الذي تقدمه واحكم بعد ذلك في ما يجب على البشر من التأني والتساهل والعقل ليعيشوا معاً بسلام ووداد دون ان يكون لتلك الخلافات العظيمة في الراي والمعتقد تاثير عليهم

ولما اطبقت السحل كتبت فيه بالفرنسوية اسمي واسم الجامعة ووضعت بجانبها هذه العبارة «حين مروري فاصداً اميركا» ولما كتبتها سمعت صوت بلبل يغرد على الشجرة وراء النافذة . ذلك ان الفصل فصل ربيع وكان روسولا يحب شيئاً في الربيع هناك مثل تغريد البلابل . فخيل لي ان بلابل روسو حين كتبت تلك العبارة نقول لي «اقم هنا ولا ترحل» فابتسمت واجبتها في نفسي «هذا ممكن في آخر العمر لا في اوله» ولما عدت من البيت الى المركبة التي كانت تنتظرني خارجاً كنت ممثلي النفس غزلاً وشعراً . فاردت قطف وردة او زهرة من الحديقة فلم اجترأ على ذلك احتراماً للبيت . فخرجت وبجئت خارج البيت في الطريق عن زهرة احملها تذكراً لزيارتي الاولى . فوجدت خارج باب الدخول زهراً ابيض جميلاً فمددت يدي وقطفت بضع زهرات منه ما زلت احفظها . فاصابت كفي حين مددتها نباتاً شائكاً بجانب الزهرة فشاكها وآلمها . فضحكت لانه خطر لي حينئذ هذا الفكر «جان جاك جان جاك . انك قضيت عمرك وانت تشكو الزمان والناس ومصائب الحياة . فاعلم الآن اننا في هذه الحياة المدنية الجديدة . التي كنت تحمل عليها حملات شديدة . والتي صار فيها «تنازع البقاء» بين الناس عبارة عن صراع بين وحوش عنيدة . صرنا نجد الآلام والمتاعب حتى حين قطف الازهار التي نراها في طريقنا وقد اقمنا في شمبيري اربعة ايام . وزرت الاحراش والحقول حول البيت وقرأت للمرة الثانية في ظل اشجارها الظليلة ما كتبه روسو عن تاريخ حياته واقامته في تلك الجبال وقصته مع خليلته مدام دي وارين وخيلات اخرى غيرها عرفهن بعدها . وموعداً بنشر ذلك جزء تال

اقتراح على الادباء

يقبل الجواب نظماً ونثراً

في هذا الجزء الصفحة (١٠) السطر ٢٥ في الحاشية الثالثة «مسألة عائلية اجتماعية»
نقترح الجامعة على الادباء البحث فيها والجواب عنها نظماً او نثراً . ونشترط ان لا يتجاوز الجواب خمسة اسطر في الجامعة